المرأة المصرية والعلم - خلفية تاريخية

أ.د. رءوف عباس حامد

مصر من أرسخ بلاد العالم قدما فى صنع الحضارة، بل أرسخها قدما فى هذا المضمار، ولما كان بناء الحضارة لا يتحقق إلا بالإبداع العلمى والفنى، الذى يمثل إستجابة الإنسان لتحديات البئية الطبيعية، فقد قطع المصريون القدماء شوطا طويلا على هذا الطريق، فكان إهتداء المصريين إلى الزراعة مفتاحا لإنجازات علمية تحققت فى ميادين الفلك والرياضيات وهندسة الرى، تاهيك عن المعجزة التى حققها المصريون فى مجال الهندسة المعمارية التى لاتزال حتى اليوم شاهدا عدلا فى وقفتها الشامخة تتحدى الزمن، ونعنى بها الأهرامات والمعابد، فضلا عن براعة الفنان المصرى فى النحت وقدرته على التعامل مع أصلد المواد بأدوات متواضعة، ليعبر عن الأحاسيس الإنسانية فيما ينحت ويصور، بل كان لقدماء المصريين باع طويل فى الهندسة الميكانيكية، وإلا لما إستطاعوا رفع المسلات الجرانيتية التى يقدر وزنها بمئات الأطنان من محاجرها بجنوب البلاد إلى مواقعها فى مختلف أنحاء مصر شمالا وجنوبا، لتستوى فى تلك المواقع وتحكى للأجيال المتتالية عن عظمة المهندس المصرى القديم. ومساهمات المصريين فى ميدان الطب غنية عن التعريف، وتقدمهم فى علم التشريح لا يحتاج إلى دليل، وبراعتهم فى التحنيط لازالت تشغل بال علماء عصر الفضاء بأجهزتهم الدقيقة التى تمثل آخر ما وصل إليه العقل البشرى من تقدم تكنولوجى.

ولم يتوقف عطاء مصر الحضارى المرتكز على أسس عملية على مر العصور، وما كانت مدرسة الإسكندرية فى العصرين البطلمى والبيزنطى إلا منارا للعلم والمعرفة يشع نوره فى مختلف أرجاء حوض شرق البحر المتوسط، حيث كان طلاب العلم والفلاسفة والعلماء يحجون إلى مصر من بلاد اليونان ومختلف بلاد الشرق الأدنى القديم لينالوا قبسا من نور علم مصر. وذاع صيت الكثيرين منهم بفضل إنتمائهم إلى مدرسة الإسكندرية القديمة.

كذلك كان شأن مصر عندما إنضوت تحت لواه الإسلام، فلعبت دورا متميزا فى تاريخ الإسلام على مر القرون، فكانت محطا لرحا ل العلماء ومهدا لنشاط علمى واسع، ولمع فى جامعتها الإسلامية العتيدة (الازهر) علماء أجلاء برعوا فى الطب والكمياء والفيزياء والفلك والرياضيات، فضلا عن الفلسفة والأدب وغيرها من المعارف الإنسانية.

ولم تخب جذوة العلم فى مصر فى دياجير ظلام التخلف الذى ران على بلاد الإسلام فى العصر العثمانى، إلا لتتقد من جديد مع مطلع القرن التاسع عشر، فعادت مصر إلى موقعها الريادى فى المنطقة المحيطة بها، وكانت المعبر الذى إنتقلت عن طريقه العلوم الحديثة إلى العالم العربى، فنقل جيل رائد من أبناء مصر المراجع الأساسية فى الطب والهندسة والفيزياء والكيمياء والرياضيات إلى لغة الضاد، وقدموا مساهمات ذات بال فى مختلف المجالات العلمية.

واذا كان هذا شأن مصر عبر تاريخها المجيد الطويل، فلا ريب أن أبناءها قد ساهموا – رجالا ونساء – مساهمة إيجابية فيما قدمته مصر للإنسانية من عطاء حضارى، قام على إنجازات علمية خلدها التاريخ. ولم تكن المرأة المصرية أقصر باعا من الرجل فى هذا العطاء كلما أتيحت لها الفرصة المتكافئة للتعليم.

***

وللمرأة فى التراث التاريخى المصرى مكانة سامية، فقد كان أساس الأسرة المصرية يرتكز على نظام الأمومة، إذ كان الزوج يتبوأ مركزا ثانويا فيها، على حين كانت الزوجة تحتل مركز الرئاسة فى تدبير شئون الأسرة، كما كان البيت وأثاثه ملكا لها، فإذا ماتت ورثها بناتها لا أبناؤها، لهذا كان زواج الأقارب محببا فى مصر القديمة، بل كانت وراثة العرش مقصورة على فرع الأمهات فى عصرما قبل التاريخ، ولكنها حصرت فى الأبناء فى عصر الأسرة الأولى، ثم إعترفت الأسرة الثانية بحق النساء فى تولى الحكم، وبذلك إسترد البنات حقهن فى قصر وراثة العرش عليهن دون الأبناء، فلم يتول سنفرو – أول ملوك الأسرة الرابعة العظام – الحكم إلا لأنه تزوج بإبنة آخر ملك من ملوك الأسرة الثالثة. وإستمرت وراثة العرش للإناث حتى عصر الدولة الحديثة، فما كان تولى ملوكها العرش إلا مرهونا بالزواج من وريثاته الشرعيات.[1]

وكان فرع الأم يوضع موضع الإعتبار الأهم فيما يختص بالنسب، فإذا انتسب الأبناء يذكرون أسماء اسلاف أمهاتهم لا أسلاف آبائهم، وكانت الممتلكات العقارية يرثها الأبناء عن الامهات.[2] وتمتعت المرأة فى القانون المصرى القديم بمكانه إجتماعية وقدر عن الإستقلال لم تعترف بهما الشرائع الإغريقية، فلم تكن تتزوج إلا بمحض إرادتها وبشروط كانت ثقيلة على الزوج إلى حد أنها كانت تجعل تعدد الزوجات أمرا متعذرا فى الواقع وإن كان مباحا من ناحية المبدأ. وكانت أيضا

[1] بترى، فلندر: الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة، ترجمة حسن محمد جوهر وعبد المنعم عبد الحليم، الهيئية العامة للكتاب، القاهرة 1975، ص 207 – 210.

[2] نفس المرجع، ص 221.

تستطيع الإنفصال عن زوجها متى شاءت، وطالبته بالصداق الذى نص عليه فى عقد الزواج، والتصرف فى نفسها وفيما تملك دون قيد او شرط.[3]

واذا كان ذلك شأن المرأة فى مصر القديمة، فلا بد ان تكون قد لعبت دورا هاما فى الحياة العملية يتكافأ مع دورها فى نواحى الحياة الأخرى، وإن كنا لا نعرف من النصوص والوثائق التى وصلتنا إلا شذرات من المعلومات عن إناث كن يعرفن الكتابة والقراءة ويشاركن فى النشاط الثقافى، ويتذوقن الأدب ويتراسلن به، بل تولت إحدى السيدات مهمة الكتابة الرسمية للملكة، وكان لإحدى الأميرات كتابات فى القضاء والإدارة وشئون الحكم، واشتهرت إحدى الملكات بلقب " "العارفة" (أو العالمة)، وتولت إحدى السيدات مهمة تثقيف أبناء الأمراء الأجانب الذين كانوا يتلقون العلم فى مدرسة البلاط الفرعونى. وأشارت الوثائق – كذلك - إلى نساء من أواسط الناس تراسلن مع بعضهن البعض بإسلوب رفيع ينم عن ثقافة وطِّ لاع.[4]

كذلك كانت هناك كاهنات من النساء يخدمن فى المعابد، ولما كان للكهنة باع طويل فى العلم، وبراعة مشهودة فى التحنيط، فلا ريب أن الكاهنات أصبن من العلم قدرا لا بأس به، وشاركن فيما يرتبط بالمعابد من نشاط علمى.

ولا أدل على إرتباط المرأة فى مصر القديمة بالثقافة ومساهمتها فيهما من تلك الوثيقة التى يحدثنا فيها موظف يدعى "خنوم ردى" كان أمينا لمكتبة سيدة عظيمة القدر تدعى "نفرو كابيث" فيقول: "هذه السيدة قد عينتننى قيما على خزائن الكتب الخاصة بأمهما، وكانت مولعة بالعلوم والفنون، وقد زدت فى عدد ما تحويه المكتبة من كتب، وجلبت لها كثيرا من المؤلفات القيمة حتى لم تعد تتسع لأكثر من ذلك، وقمت بترتيبها أحسن ترتيب، وربطت منها ما كان مفككا.[5]

ورغم أن المرأة المصرية فقدت بعض ما كانت تتمتع به من حقوق قانونية فى العصرين البطلمى والرومانى، إلا أن مكانتها الإجتماعية لم تتأثر بذلك، فظلت الحقوق التى كفلها العرف للمرأة المصرية سائدة. وجاء الإسلام إلى مصر فى القرن السابع الميلادى ليؤكدها، فاستردت المرأة المصرية حقها فى الميراث الذى فقدته فى العصرين الرومانى والبيزنطى، وأصبح لها حق التملك، بل وحق التعليم، ففرض عليها الإسلام طلب العلم كما فرضه على الرجل، اذ سوى الإسلام بين المرأة والرجل فى الأمور الروحية والواجبات الدينية،ولم يفرق العلم بينهما فى العلم والتعلم، اذ يقول الرسول الكريم: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.[6]

ورغم وفرة المادة العلمية حول مساهمات الرجال من علماء المسلمين فى العلوم الطبيعة والتطبيقية، إلا اننا لا تجد ما يشير إلى نساء ساهمن بجهدهن فى تلك المجالات ولكن لدينا معلومات كافية عن دور المرأة فى العلوم الإنسانية وخاصة العلوم الشرعية، فتحدثنا المصادر عن نساء كن – كما سنرى– ثقات فى الفقه وعلوم اللغة والأدب، تلقين العلم على كبار علماء زمانهن، وقصدهن الطلاب للاستفادة بما لديهن من معرفة، بل كان بعضهن أستاذات لعلماء ذاع صيتهم فيما بعد.

وكان للمرأة شأن كبير فى الدولة الفاطمية، فكن يتدخلن فى شئون الحكم، واشتهر بينهن الكثيرات بالثراء والبذخ ورعاية العلم والعلماء، ولكن ذلك لا يعكس حال المرأة فى مصر فى ذلك العهد، فلم يظهر بين عامة الناس نساء كان لهن أثر فى الحياة السياسية والثقافية، وظل ذلك وقفا على نساء الخلفاء والأمراء وغيرهن من نساء الصفوة الحاكمة.

وقد عوملت النساء فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله معاملة تنطوى على القسوة والعنف، فمنع النساء من الخروج من المنازل أو الظهور من أعلاها، ومن دخول الحمامات العامة، ومنع صناع الأحذية من صناعة أحذية للنساء، إلى غير ذلك من تصرفات أثرت على نشاط المرأة فى ذلك العهد.[7]

ولكن تلك الصورة القاتمة كانت عابرة وليست أصيلة، فقد تسلم الفاطميون مصر وبها حركة فكرية تجوز طورا من أطوار قوتها، إذ كانت الدولة الإخشيدية (التى إستخلص الفاطميون منها تراث مصر) نصيرة للعلوم والآداب، ونبغ فى ظلها عدد وافر من العلماء والعالمات. وازدهرت هذه الحركة الفكرية فى عهد الدولة الفاطمية بقيام جامعة الأزهر، وتأسيس "دار العلم"، وتشجيع الطلاب والعلماء وإجراء الأرزاق عليهم، وعقد مجالس المناظرة بينهم، والإنفاق على معاهد التعليم المختلفة، وتزويدها بما تحتاج إليه من كتب وأدوات.

وكان للمرأة المصرية تصيب كبير من العلم فى ذلك العصر، فقد كانت تعقد حلقات علمية خاصة للنساء بالجامع الازهر وغيره من المراكز التعليمية، كان الهدف منها سياسيا، وهو نشر الدعوة الشيعية بينهمن، ولكن تلك الحلقات تضمنت قدرا لا يأس به من مختلف العلوم اللغوية والدينية، كل ذلك فى إطار الدعوة الشيعية الفاطمية، فلم يكن للدارسين والدارسات حق التفكير الحر أو الترويج لأفكار جاهضة للمذهب الشيعى، وإلا تعرضوا للإضطهاد والقتل.[8]

---

[3] إبراهيم نصحى: مصر فى عصر البطالمة، تاريخ الحضارة المصرية، جـ2، ص 62 – 63.
[4] عبد العزيز صالح: التربية الثقافية، المرجع السابق، جـ 1، ص 188.
[5] وليم نظير: المرأة فى تاريخ مصر القديم، دار القلم، القاهرة 1965، ص 20.
[6] محمد عطية الأبراشى: مكانة المرأة فى الإسلام، ص17.
[7] حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة 1958، ص 645 – 647.
[8] خطاب عطية على، التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى، ص 216 – 217.

ولا نجد فى المصادر ما يشير إلى وجود مدارس خاصة لتعليم النساء فى العصريين الأيوبى والمملوكى، حقيقة وجدت الربط الخاصة بالنساء (وهى مؤسسات خيرية لرعاية من لا عا ئل لهن)، ولكن لم يرد ذكر ما يفيد أنهن كن يشتغلن فيها بطلب العلم. ولذلك يمكننا القول أن تعليم المرأة فى هذين العصرين كان يتم بالمنازل، وكانت بنات العائلات الموسرة أسعد حظا، حيث يرتب لهن ذووهم المعلمين من مشاهير العلماء بمصر والشام ليتلقوا عنهم العلم فى بيوتهن، وقد ترجم السخاوى فى كتابه "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" للكثيرات من العالمات اللاتى نبغن فى الفقه وعلوم اللغة والحديث، وانتفع بعلمهن الكثير من الطلاب. فيذكر السخاوى ان عائشة بنت على كانت من أكبر المحدثات فى عصره وحضر دروسها الأئمة، أما هاجر بنت محمد فكانت أدق المشتغلين بعلم الحديث إسنادا، وتزاحم عليها طلاب الحديث من مصر وغير مصر من بلاد الإسلام. وكانت أم هانئ الهورينية تشتغل بعلم الحديث أيضا، وسمع عليها الفضلاء.

ومن النساء من إحترفن التدريس فى ذلك العصر وتقاضين أجورا على ذلك، فتذكر لنا المصادر أن هاجر بنت محمد كانت فقيرة تستعين على أسباب العيش بما تحصل عليه من طلابها، بل ربما طلبت المزيد. كذلك إحترفت زينب بنت على التدريس بعد وفاة زوجها فاشتغلت معلمة خاصة للبنات فى بيت صلاح الدين بن الجيعان. ورتبت الموسرات من العالمات حلقات دراسية فى بيوتهن حضرها علماء العصر عندئذ كالسيدة ألفت بنت القاضى علم الدين صالح البلقينى التى نظمت حلقة دراسية دورية فى بيتها.

على ان هذا النشاط العلمى النسائى فى العصرين الأيوبى والملوكى لم يكن مقتصرا على القاهرة وحدها، بل إمتد إلى المدن المصرية الأخرى، فكانت هناك نساء ذائعات الصيت فى العلوم الشرعية بالإسكندرية وأسيوط وغيرهما من حواضر مصر.

وكما حظى العلماء والفقهاء برعاية السلاطين والأمراء، نالت العالمات نفس الخطوة والرعاية، فقد شمل السلطان الظاهر جقمق برعايته السيدة باى خاتون بنت السبكى التى كانت عالمة شامية، فاستدعاها إلى مصر لينتفع الناس بعلمها وأغدق عليها، كذلك إستقدم سلطان آخر الشيخة الصالحة ست الوزراء إلى مصر لما إشتهرت به من تبحر فى علم الحديث لتعليم النسوة العلوم الشرعية، ووفر لها الراحة بعد ان تقدمت بها السن.

وليس أدل على الدور الذى لعبته المرأة فى الحياة العلمية فى مصر الإسلامية وعلى نجاحها فى ذلك، بل وتفرد بعض النساء العالمات أحيانا، مما يقرره العالم المؤرخ شمس الدين الشخاوى من أنه قد تلقى العلم على يد خمس -على الأقل- من عالمات زمانه (القرن الثامن الهجرى الموافق للثالث عشر الميلادى).[9]

ومن بين من ترجم لهن السخاوى من عالمات عصره آمنة بنت الشيخ الشمسى محمد الرشيدى، التى تتلمذت على أبى هريرة بن الذهبى وأبى الخير بن العلائى وكلاهما كان عالما بارزا، ثم قامت بتعليم عدد من طلاب العلم رجالا ونساء. وعالمة اخرى هى آمنة بنت موسى تعلم على يدها السخاوى نفسه، ويصفها بأنها "كانت خيرة أصيلة"، وأنها ظلت تخدم العلم حتى ماتت وقد جاوزت المستين عاما. كذلك تعلم السخاوى على يد أستاذة أخرى هى ألفت بنت عبد الله الكنانى التى تعلم على يديها الكثير من "الفضلاء" وكانت فقيهة فى المذهب المالكى. وتتلمذ السخاوى كذلك على أمة الخالق بنت الزين العقبى، التى كانت "صالحة كاتبة فاضلة "، تخصصت فى علم القراءات والنحو. أما عائشة بنت أبى بكر الملقبة بأم الخير فكانت دءوبة فى طلب العلم على كبار علماء دمشق والقاهرة والإسكندرية، ولم تكن تقبل من التلاميذ إلا النجباء، ولذلك كان عدد تلاميذها محدودا. ومثلها أم عبد الله عائشة بنت على التى تتلمذت على علماء مصر والشام، وكان من بين تلاميذها بعض الأئمة، وسعى إليها جمع غفير من الطلبة "وأخذ عنها غير واحد من الأعيان"، وكانت متبحرة فى السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى والحديث، وقال عنها البقاتى: كتبت الكتابة الحسنة، وكانت من الذكاء على جانب كبير، تطالع كتب الفقه فتفهم، وتحفظ شعرا كثيرا... وكانت خيرة من صباها إلى أن توفيت "ولم ينتفع بعلمها أهل مصر وحدهم، بل كان من بين تلاميذها بعض الشوام. أما فاطمة بنت الشص محمد بن يوسف الصائغ، فكانت من كبار علماء القراءات وذات باع طويل فى الفلسفة والتصوف.[10]

ويتضح من ذلك أن الحياة العلمية الإسلامية لم تعرف التميز بين الجنسين فكما كان للنساء حق التردد على المساجد للصلاة، كان لهن حق حضور مجالس العلم بالمساجد أسوة بالرجال، بل كان لهن – كما رأينا- حق التدريس. وكان حضور النساء لمجالس العلم مع الرجال جنبا إلى جنب أمرا مألوفا فى المجتمعات الإسلامية فى العصور الوسطى، طالما كانت تلك المجالس تعقد بالمساجد. ولم يحل المجتمع الإسلامى بين المرأة وبين التصدر للتعليم وبلوغ مرتبة الأستاذية، ولم يجد العلماء من الرجال حرجا فى ذكر من درسوا عليهن من النساء العالمات اللاتى كن يتخذن من بيوتهن الخاصة أماكن للتدريس لطلابهن بإذن من أزواجهن[11]، مما يدل على ما كان يخطى به طلب العلم من تقدير إجتماعى كبير فى ذلك العصر.

***

[9] عبد الغنى محمود عبد العاطى، التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة، ص 258.

[10] السخاوى، شمس الدين: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، جـ 12، ص2 - 106.

[11] محمد عبد الرحيم غنيمة: تاريخ التعليم الجامعى فى الإسلام، رسالة دكتورة غير منشورة، كلية الاداب جامعة القاهرة، ص 108.

ولكن الحركة العلمية والفكرية فى مصر وغيرها من بلاد العالم العربى أصيبت بالجمود والضحالة فى العصر العثمانى، يرجع ذلك الجمود إلى الظروف التى شهدها الوطن العربى فى الحقبة التى أعقبت التحديات الخارجية التى تعرضت لها المنطقة (الحركة الصليبية والغزو المغولى)، وما ترتب على ذلك من إغلاق باب الإجتهاد خشية تسرب ما يضر بالعقيدة الإسلامية إذا ما ترك باب الإجتهاد مفتوحا. ولما كان الإجتهاد فى الدين قد أصبح محرما، فلا إجتهاد فى امور الدنيا، هكذا طرح المنهج العقلى – أداة الإجتهاد– الذى كان وراء تلك الإنجازات العلمية الرائعة التى قدمها علماء المسلمين فى عصر الإبداع. وأصبح علماء المسلمين يعتقدون أن ما أبدعه "السلف الصالح" يمثل ذروة لا يستطيع بلوغها أحد، فضلا عن تجاوزها الذى يعد التفكير فيه –مجرد التفكير– من ضروب المحال، وأن كل ما يستطيعونه هو إعادة صياغتها وشرح الغريب من ألفاظها فاتجه العلماء إلى التقليد وقاوموا كل محاولة للابتكار والتجديد، وإعتبروا مثل تلك المحاولات محاول هدم لما بناه "السلف الصالح" يرمى أصحابها بالزندقة والإلحاد.

كما انتشرت بين المسلمين روح التعصب المذهبى والطائفى، كالخلاف بين الفقهاء والمتصوفة، وبين السنة والمعتزلة، وبين السنة والشيعة، والخلاف بين المذاهب السنية الأربعة وبعضها البعض. وبدلا من أن تؤدى هذه الخلافات إلى ظهور نهضة فكرية، أدت إلى تخلف المرأة وظهور الآراء التى نادت بتحريم خروج المرأة من عقر د ارها، وأن عليها ألا تبرح خدرها، فحرمت من تلقى العلم فى المساجد، بل حرمت من ممارسة شئونها الخاصة إلا من خلال رجل من أهلها، كما حرم على النساء قراءة القرآن أو الاستماع إليه فيما عدا سورة النور حتى يتعظن بما يتهدد الكافرين من العقاب. وإجمالا، هبطت المكانة الإجتماعية الإنسانية السامية للمرأة، والتى كانت أصيلة فى تراث مصر التاريخى لتصبح المرأة فى منزلة السوائم، وتتحول من شريك للرجل إلى إحدى مقتنياته، ومن مربية ومعلمة له إلى أداه لمتعته.[12]

وهكذا لا نجد للمرأة ذكرا بين (علماء) العصر العثمانى بعدما تبدلت القيم الإجتماعية فى عصر التخلف، وحتى أولئك العلماء كانوا مجرد شراح ونقلة لأفكار الأجيال السابقة عليهم، ولم يسمح للمرأة إلا بحفظ القرآن سماعا على مقرئ تستأجره الأسرة لهذا الغرض دون أن يتطرق ذلك إلى تفسير ما تحفظ، ودون أن تتعلم القراءة والكتابة صيانة لعفتها حتى لا تراسل أحدا من الرجال. ورحم الله زمانا كانت فيه المساجلات والمحاضرات العلمية سجالا بين العلماء والعالمات، وكانت السلطة ممثلة فى الخلفاء والسلاطين والأمراء تثيب المبرزات من النساء فى ميادين العلم والمعرفة !!

واحتاج المجتمع المصرى -الذى عاش العصر العثمانى يجترماضيه ويعمى عن حاضره- إلى صدمة ثقافية عنيفة تمثلت فى الحملة الفرنسية التى دهمت مصر مع غروب شمس القرن الثامن عشر وبزوغ فجر القرن التاسع عشر، أيقظت المجتمع الإسلامى كله - فى مصر وغير مصر- من سباته العميق، فتحت أعين الناس على حقيقة تخلفهم، وعلى مدنية جديدة ذات أفكار ونظم ومنجزات لا عهد لهم بها، فأدركوا مبلغ ما فاتهم من التقدم، وأحسوا بالبون الشاسع بينهم وبين "الفرنجة "، وتحولت نظرتهم إلى الغرب من شعور بالاستعلاء (ترسب فى أعماق الواجدان العربى منذ أيام الحروب الصليبية) إلى عقدة نقص لازمتهم على مر القرن التاسع عشر، ولكنها دفعتهم إلى محاولة سد فجوة التخلف بقدر ما لديهم من طاقة، ونسجت هذه المحاولة تاريخ مصر الحديث.

وإذا كان بعض الكتاب[13] يرى أن حركة تحرير المرأة فى مصر تمتد جذورها إلى سنوات تلك الصدمة الثقافية (عهد الحملة الفرنسية)، إستنادا إلى ما ذكره الجبرتى من تقليد بعض النسوة لنساء الفرنسيين فى الملبس ومجاراتهن لهن فى السلوك، فان ذلك الإستنتاج يجانبه الصواب، فالجبرتى نفسه يشير إلى نفور الناس من مسلك تلك القلة من القاهريات، ويلمح إلى أنهن كن طُملاً من محترفات البغاء، ولا يمكن –منطقيا- أن تتغير قيم إجتماعية سادت نحو أربعة قرون ورسخت فى بنية المجتمع خلال تلك السنوات الثلاث التى مكثتها الحملة الفرنسية فى مصر، وإحتاج الأمر إلى قرن كامل للتخلص من الثقافة التى حبست المرأة فى قفص الحريم، ولكن رويدا رويدا. وما كادت تطوى صفحة القرن التاسع عشر، حتى كانت صيحة إطلاق المرأة من عقالها إنعكاسا للتغير الاجتماعى الذى أصاب مصر على مر ذلك القرن، والذى أتاح للمرأة المصرية قدرا من التعليم، ونصيبا متواضعا من المشاركة فى النهضة العلمية الحديثة.

***

ورفاعه رافع الطهطاوى -رائد الفكر المصرى الحديث- كان أول من تناول وضع المرأة فى المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر، فضمن كتابه "المرشد الأمين للبنات والبنين" دراسة لدور المرأة فى المجتمع المصرى، أكد فيها على أن المرأة لا تختلف عن الرجل فى التفكير والقدرات وإنما تخلف عنه فى الجنس وحسب، وأن المرأة قد خلقت لأداء مجموعة من الواجبات الأساسية، فقد " خصهن الله سبحانه وتعالى دون الرجال بتدبير المعا ئش الأولية، والقيام بالأشغال الضرورية والمتاعب المعاشية، ومباشرة فراش المرضى من الأزواج والأولاد وغيرهم، وتخفيف الآلام والأسقام، وبالإضافة إلى الواجبات الإجتماعية، رأى الطهطاوى أن للمرأة دور هام فى إعداد المواطن الصالح، ومن ثم كان لها الحق فى التعليم حتى تحسن اداء وظيفتها التربوية، لأن "آداب المرأة ومعارفها تؤثر كثيرا فى أخلاق أولادها" إذ أن "البنت الصغيرة متى رأت امها مقبلة على مطالعة الكتب وضبط أمور البيت... جذبتها الغيرة لأن تكون مثل امها". كذلك يجب ان يكون للمرأة الحق فى العمل، لأنه " يمكن للمرأة عند اقتضاء الحا ل أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما

[12] اجلال خلفية: الحركة النسائية الحديثة، قصة المرأة العربية على أرض مصر، القاهرة 1973، ص 12 – 13.

[13] انظر على سبيل المثال / لويس عوض، تاريخ الفكر المصرى الحديث، جـ 2 كتاب الهلال، ص 32. واجلال خلفية، المرجع السابق، ص 16.

يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها"، فهو يرى أن " العمل يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة، وإذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة عظيمة فى حق النساء".[14] وتضمنت كتابات الطهطاوى إشارات حول تعدد الزوجات توحى باتجاهه إلى تقييد هذا الحق الذى تمتع به الرجل دون إكتراث بالشروط الشرعية المحددة له، كما خاص فى قضية الطلاق وضمان حقوق المرأة فى إطار قانونى يفسر الشريعة الاسلامية تفسير إيجابيا.

غير أن المجتمع المصرى الذى كبل المرأة بقيم إجتماعية بالية لما يزيد على أربعة قرون من التخلف الحضارى، لم يكن مهيأ لتلقى مثل هذه الافكار. ووقع على عاتق قاسم أمين إثارة قضية تحرير المرأة باعتبارها قضية ذات أبعاد إجتماعية وإقتصادية وخلقية.

فقد رأى قاسم أمين أن تحرير المرأة يعد حجز الزواية فى النهوض بالمجتمع الإسلامى من وهدة التخلف، وأن سبب ما يعانيه المجتمع الإسلامى من تخلف يرجع إلى زوال الفضائل الإجتماعية، أى زوال " القوة المعنوية "، وذلك راجع إلى الجهل بالعلوم الحقيقة التى يمكن إستنباط قوانين السعادة البشرية منها وحدها. ويبدأ الجهل فى العائلة، فالعلاقة بين الرجل والمرأة، وبين الأم والولد، إنما هى أساس المجتمع، وما دور المرأة فى المجتمع إلا "إصلاح أخلاق الأمة"، ولكن المرأة تتمتع -فى المجتمع الاسلامى- بالحرية والمكانة اللازمتين للقيام بدورها.

ورأى قاسم أمين أن ذلك لا يرجع إلى الإسلام فى حد ذاته، فالشريعة الإسلامية هى أول قانون ساوى المرأة بالرجل إلا فى حالة تعدد الزوجات، ولذلك جاء الفساد إلى الإسلام من خارجه مع أولئك الذين إعتنقوه وجلبوا إليه "عاداتهم وأوهامهم"، فهدموا النظام الإسلامى الأصلى الذى حدد واجبات الحكام والمحكومين، واستعاضوا عنه بحكم القوة العاتية، فتفشى فى المجتمع بكامله إحتقار القوى للضعيف وامتهان الرجل للمرأة.

ومن ثم كان جوهر القضية عند مركز المرأة الذى لا يتحسن إلا بالتربية. ولم يقترح قاسم أمين أن تتثقف المرأة تثقيفا عاليا كالرجل، إذ آثر الإعتدال والحذر فى هذا الأمر وإنما نادى بأن لا يقل تحصيلها عن التعليم الإبتدائى للتمكن من إدارة منزلها كما ينبغى وتلعب دورها فى المجتمع. وعلى هذه التربية أن تتوخى إعداد المرأة لكسب الرزق، إذا أن هذا يحقق الضمان الوحيد لحقوق المرأة، فإذا ظلت غير قادرة على إعالة نفسها تبقى تحت رحمة الرجل، بصرف النظر عن أى حقوق تمنحها لها الشريعة.

جاءت كل تلك الأفكار التى طرح فيها قاسم أمين تصوره للنهوض بالمجتمع الإسلامى على أساس رفع القيود عن حق المرأة فى التعليم والعمل، فى كتاب صغير شهير بعنوان " تحرير المرأة " نشر عام 1899، فأثار عاصفة من النقد، وظهرت بعد صدوره ببضعة شهور سلسة من الكتب والنشرات هاجم بعضها نظريته وأيدها البعض الآخر، وتجاوزت الكتابات المعارضة حدود آداب الحوار. وفى عام 1900، رد قاسم أمين على نقاده، بكتاب ثان حمل عنوان "المرأة الجديدة" عد فيه حرية المرأة أساسا لجميع الحريات الأخرى ومعيارا لها، فعندما تكون المرأة حرة يكون المواطن حرا، وما الحجج المستعملة ضد حرية المراة سوى الحجج المستعملة ضد الحرية من أى نوع كانت (كحرية الصحافة مثلا)، وأكد على أن الحرية التى تتمتع بها المرأة الأوربية تقوم على مبأدئ عقلية وعلمية ومن العبث تبنى علوم أوربا بدون الإقتتراب من منهل مبادئها الخلقية.[15]

وبعض النظر عن مدى تقبل الناس لأفكار قاسم أمين، فقد أدى طرح تلك الأفكار والجدل الذى ثار حولها لفت الأنظار إلى ضرورة أن يكون للمرأة دورها فى بناء المجتمع الحديث. ولكن الحديث عن الموضوع كان قاصرا على أرباب الأقلام من الرجال، حتى السيدة الوحيدة التى شاركت فيه (ملك حفنى ناصف) كانت تتستر وراء إسم رمزى (باحثة البادية) وكانت تدافع عن بقاء الحجاب وتنكر المطالبة بإلغائه.

***

وإذا كانت الدعوة إلى إطلاق المرأة من عقالها قد ركزت على ضرورة الإعتراف بحقها فى التعليم والعمل، فقد شهد القرن التاسع عشر محاولات محدودة لفتح باب التعليم أمام المرأة المصرية حكومية وغير حكومية أتت أكلها عند نهاية القرن الماضى ومطلع هذا القرن.

وجاء أول اهتمام رسمى بتعليم المرأة فى عهد محمد على، عندما دعت الحاجة إلى إعداد المولدات (الحكيمات) اللاتى يعالجن النساء ويقمن بالتوليد للقضاء على ظاهرة القابلات الجاهلات من ناحية، ولأن التقاليد كانت تحول دون المرأة واستشارة الأطباء من الرجال من ناحية أخرى فأسس محمد على مدرسة للحكيمات إلى جوار مدرسة الطب بأبى زعبل، ولما كان الناس يرغبون عن إرسال بناتهم إلى المدرسة الجديدة، فقد إضطر الباشا - فى بداية الأمر- أن يشترى بعض الجوارى الحبشيات ليلحقهن بالمدرسة حيث يتعلمن اللغة العربية ويدرسن بها علم التوليد وطب النساء من كتاب فرنسى نقله قلم ترجمة إلى اللغة العربية، وألحق بالمدرسة مستشفى صغير يضم عشرين سريرا خصص لعلاج النساء.

---

[14] الاقتباسات من المرشد الامين، ص53، 67، 66 على التوالى.

[15] حول أفكار قاسم أمين راجع كتابية " تحرير المرأة " و " المرأة الجديدة " وانظر أيضا لويس عوص: المرجع السابق، جـ 2، ماهر حسن فهمى: قاسم أمين، سلسة أعلام الحرب.

وعندما نجحت التجربة، بدأ محمد على يلحق المصريات بالمدرسة. ومرة أخرى واجهت الحكومة مشكلة عزوف الآباء عن إرسال بناتهم إلى المدرسة، فاضطر محمد على إلزام بعض شيوخ القرى بإيفاد عدد من البنات اليتيمات إلى تلك المدرسة، وإلى إلزام بعض جنود الجيش بإرسال بناتهم إليها، بذلك أصبحت مدرسة الحكيمات تضم ما يزيد على مائة طالبة من بينهن عشرين من القاهرة وأربعة طالبات من كل مديرية من مديريات مصر وبعض السودانيات والحبشيات.

وتولى كلوت بك -رائد التعليم الطبى الحديث فى مصر- الإشراف على مدرسة الحكيمات، وتولت التدريس بها معلمة فرنسية، وأصبحت التلميذات تتعلمن اللغة الفرنسية إلى جانب العربية. وكانت برامج الدراسة تشمل على مايلى ":[16]

1- اللغة العربية واللغة الفرنسية.
2- علم التوليد نظريا (باستخدام نموذج صناعى) وعمليا بمباشرة التوليد بالمستشفى الملحق بالمدرسة.
3- طرق الرعاية الطبية للحوامل والنساء اللاتى فى حالة الوضع والأطفال المولودين حديثا.
4- طرق علاج الأمراض السرية للنساء.
5- مبادئ الجراحة الأولية لعلاج الأورام والإلتهابات والكى وتضميد الجراح.
6- طرق الحجامة والتطعيم ضد الجدرى ووضع اللزقات وأخذ كاسات الهواء.
7- مبادئ الصيدلية وتجهيز الدواء.

وبذلك أصبحت المدرسة تخرج الحكيمات المؤهلات تأهيلا علميا كافيا للقيام بهذا العمل.

وكانت مدة الدراسة ثلاث سنوات، واشترط فيمن يلتحق بالمدرسة أن يكن بين الثانية عشرة والثالثة عشرة من العمر، وأن ينجحن فى إمتحان القبول الذى تعقده لجنة من "ديوان المدارس" وجعلت الحكومة مكافأة شهرية تتقاضاها الطالبة خلال سنوات الدراسة، هذا بالإضافة إلى المأكل والملبس والإقامة. وتخرجت الدفعة الأولى من الحكيمات عام 1839، وعينت المتفوقات منهن مدرسات بالمدرسة نفسها برتبة الملازم الثانى، كما عينت بعض الخريجات الأخريات معيدات بالمدرسة حتى إذا ثبتت كفاءتهن للتدريس رقين إلى درة المدرس وحصلن على رتبتها. أما باقى الخريجات فقد عين بالمستشفى الملحق بالمدرسة كما عين بعضهن بالمحاجر الصحية بالإسكندرية ودمياط، خصصت ثمان منهمن للعمل بأقسام القاهرة الثمانية ليقمن بالكشف على الموتى من النساء، ومن الطريف أن الخريجات كن يحملن لقب "أفندى" أسوة بزملائهن خريجى المدارس الأخرى.[17]

وإذا كانت المدرسة قد أغلقت بعد عصر محمد على مع غيرها من المدارس المتخصصة، ونفضت الحكومة يدها من تعليم البنات، فان فرصة التعليم كانت متاحة لبعض الفتيات المصريات المسيحيات وبعض المسلمات من بنات الطبقة الوسطى فى مدراس الإرساليات التبشيرية الأجنبية التى بدأت تمارس نشاطها فى مصر منذ أواخر عصر محمد على.

وكانت أول مدرسة خصصت للبنات هى تلك التى أنشأتها الإرسالية الإنجليكانية عام 1835 ثم جاءت جماعة الراعى الصالح فأنشأت أول مدرسة للبنات بها بالموسكى عام 1845، ومدرسة أخرى بشبرا عام 1861، وأنشأت الأخوات الفرنسيسكان مدرسة للبنات عام 1875. وحظيت تلك المدارس الأجنبية بدعم وتشجيع محمد سعيد باشا والخديو إسماعيل من بعده.

وكان تأسيس مدراس البنات على يد البعثات التبشرية مصدر قلق للكنيسة الأرثوذكسية المصرية، فأنشأت أول مدرسة قبطية خاصة للبنات عام 1860 بحارة السقايين، ثم تلتها مدرسة أخرى بالأزبكية. وحذت الجمعية الخيرية الإسلامية حذو الأقباط فأسست "مدرسة اليقظة الإسلامية للبنات" عام 1878.[18]

وإلى جانب هذه المدارس القليلة التى أتاحت قدرا من الثقافة للفتيات المصريات، كانت الأسر الأرستقراطية تنظم دراسة خاصة منزلية لبناتها على يد معلمات أجنبيات للغة الفرنسية والموسيقى ومعلمين من الرجال للغة العربية والتركية وعلوم الدين، وحصلت الكثيرات من بنات الطبقة المتازة على قدركبير من الثقافة العصرية ولكن هذا كان إستثناء، فالسواد الأعظم من بنات مصر كان يتخبط فى دياجير ظلام الجهل والأمية.

وعاد الإهتمام الحكومى بتعليم البنات فى عهد الخديو إسماعيل ليفتح الباب أمام بنات الطبقة الوسطى لنيل نصيب من الثقافة ففى مارس 1867 شكلت لجنة حكومية برئاسة ناظر المدارس الحربية للنظر فى شأن إقامة مدراس جديدة من بينها مدرسة للبنات تتسع لنحو خمسائمة فتاة على أن تبدأ بمائة فتاة كمرحلة أولى. غير ان المشروع لم ير النور بسبب الصعوبات المالية التى حالت دون تنفيذه ضمن خطة الحكومة التعلمية، وتولت الزوجة الثالثة للخديو (جشم آفت هانم) إقامة هذه المدرسة على نفقتها، واشترت لهذا الغرض قصرا قديما بالسيوفية وحولته -بعد إصلاحه- إلى مدرسة للبنات تضم مائتى تلميذة بالقسم الداخلى ومائة تلميذة بالقسم الخارجى، وبدأت المدرسة عملها فى أول يناير 1873.

---

[16] كلوت بك: لمحة عامة الى مصر، جـ 2، ص 636 – 642.
[17] إنظر: أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم فى عهد محمد على الكبير، القاهرة 1936.
وأيضا: درية شفيق، تطور النهضة النسائية فى مصر، القاهرة 1945، ص 30 –39.
[18] اجلال خليفة: المرجع السابق، ص 99 – 101.

ولم يمض وقت على إفتتاح مدرسة السيوفية حتى إشتد إقبال التلميذات عليها، كانت الدراسة فيها تجمع بين التعليم الأساسى (الابتدائى) والتعليم المهنى الذى يزود التلميذات بمهارات معينة تفيدهن فى حياتهن الأسرية وتتيح لهن كسب العيش إذا دعت الحاجة إلى ذلك. وكانت خريجات هذه المدرسة يستطعن إستكمال دراستهن بمدرسة التوليد الملحقة بالقصر العينى والتى عاد الإهتمام بها فى عصر إسماعيل. وكانت مدة الدراسة بمدرسة السيوفية خمس سنوات، تدرس فيها اللغتين العربية والتركية والتاريخ المصرى والجغرافيا والحساب والتدبير المنزلى والتاريخ الطبيعى ومبادئ الفزياء وبعض تطبقاتها العملية، كذلك الحياكة والأشغال اليدوية، ثم أضيفت اللغة الفرنسية والموسيقى إلى مواد الدراسة فيما بعد.

وتراوحت أعمار تلميذات مدرسة السيوفية بين سبع سنوات وإحدى عشرة سنة، ويتم إختيارهن بعد اختبارات شخصية وطبية وكانت الدراسة بالمجان.

ويبدو أن نجاح جشم آفت هانم فى إنشاء مدرسة السيوفية أثار غيرة ضرتها أورطنجة هانم (الزوجة الثانية للخديو إسماعيل)، فأنشأت هى الأخرى مدرسة ثانية للبنات بالقرية بالتعاون مع ديوان الأوقاف كانت أصغر حجما من مدرسة السيوفية، إلتحقت بها مائة من التلميذات بالقسم الداخلى وخمسين تلميذة بالقسم الخارجى، ولكن الدراسة فيها كانت أقل من حيث المستوى عن الدراسة فى المدرسة السيوفية، وما لبثت الأزمة المالية التى عانت منها الحكومة أن دفعت ديوان الأوقاف الى سحب تمويله للمدرسة، فأغلقت أبوابها وضمت تلميذاتها إلى مدرسة السيوفية.[19]

وأتت النهضة التعلمية فى عهد إسماعيل ثمارها، فظهرت بعض الشخصيات النسائية التى لعبت دورا فى الحياة العلمية، كانت فى مقدمتهن السيدة تمرهان التى نبغت فى طب النساء - وكانت من خريجات مدرسة التوليد- وأهلها نبوغها لتولى نظارة المدرسة التى تخرجت منها، ووضعت بعض المؤلفات الهامة التى ضمنتها خلاصة علمها وتجاربها، أصبحت مراجع هامة لتلميذات مدرسة التوليد كان من أهمها كتاب "محكم الدلالة فى أعمال القبالة" وطبع عام 1869، كما ساهمت فى تحرير المجلة الطبية التى كانت تصدرها الحكومة بعنوان "يعسوب الطب" بمقالات علمية عديدة عالجت الأمور المتصلة بالتوليد وطب النساء.[20]

كما كان من خريجات مدراس البنات فى عهد إسماعيل من نبغن فى مجال الأدب والشعر كالسيدة عائشة عصمت التيمورية التى حفلت صحف العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر بقصائدها ومقالاتها الأدبية، وكانت تجيد اللغتين الفارسية والتركية إجادتها للغة العربية، وكان من بين أساتذتها السيدة ستيتة الطبلاوية والسيدة فاطمة الأزهرية، ولها ديوان بالتركية طبع باستا نبول وآخر بالعربية طبع بالقاهرة بعنوان "حلية الطراز" وكان لها مساجلات مع أدباء زمانها شهدت لها برسوخ القدم فى مجال الأدب.

وكانت السيدة زينب فواز من ألمع كتاب وأدباء الربع الأخير من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين تعلمت النحو والصرف والبيان والعروض والتاريخ على يد حسن حسنى باشا الطويرانى صاحب جريدة "النيل" ونبغت فى تلك العلوم، وتجلت مواهبها فى قرض الشعر وصاغية النثر، وحفلت صفحات الجرائد والمجلات المعاصرة بمقالاتها العديدة التى تشهد لها بطول الباع فى مجال الأدب، وخاصة المناظرات القليلة التى دارت بينمها وبين بعض الكتاب والأدباء حول تحرير المرأة الشرقية وتحقيق تقدمها الثقافى والاجتماعى، وترجمت للشهيرات من بنات جنسها فى كتاب لا يزال مرجعا هاما حتى اليوم حمل عنوان " الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور"، كما جمعت مقالاتها فى كتاب بعنوان "الرسائل الزيتية"، وألفت ثلاث روايات أدبية هى: "حسن العواقب" و "الهوى والوفاء" و "الملك قورش"، بل ووضعت مصنفا فى تراجم مشاهير الرجال بعنوان "مدارك الكمال فى تراجم الرجال"، هذا بالاضافة الى العديد من الكتابات المتناثرة التى لم تجمع فى عمل واحد.[21]

واذا كان الإحتلال البريطانى قد أغفل الإهتمام بالتعليم وأنقص عدد المدارس، وتوسع فى الأخذ بمبدأ تحمل المواطن لجميع نفقات تعليم أبنائه وقصر المجانية على المتفوقين فى التعليم الابتدائى فحسب، وحرص على بقاء برامج التعليم عند حدود متواضعة تفى بحاجة الجهاز الإدارى إلى الكتبة وصغار الموظفين، فلا تتوقع منه – إذا- أن يهتم بتعليم البنات، أو فتح باب المعرفة أمام المرأة.

وهكذا تحولت مدرسة السيوفية إلى "مدرسة السنية" عام 1889، واقتصر التعليم فيها على بنات الطبقة القادرة على تحمل مصروفات الدراسة. غير أن الإقبال على مدرسة السنية، وعجزها عن قبول المتقدمات للإلتحاق بها، دفع الحكومة إلى إنشاء مدرسة عباس الأول للبنات عام 1895، ثم بدأت مجالس المديريات منذ عام 1909 إنشاء مدارس إبتدائية خصص القليل منها للبنات، وأنشأت مدارس البنات الأولية والراقية عام 1916 وفى العام التالى إفتتحت أول مدرسة ابتدائية للبنات بالاسكندرية بحى محرم بك.

وفى أعقاب ثورة 1919 التى لعبت فيها المرأة المصرية دورا هاما، فطرحت الحجاب، وخرجت تناضل من أجل الإستقلال، إزداد الإهتمام بتعليم البنات، فأنشئت أول مدرسة ثانوية للبنات عام 1920 (مدرسة الحلمية الثاوية) وتلتها

[19] درية شفيق: المرجع السابق، ص45 – 52.
[20] درية سفيق: المرأة المصرية من الفراعنة الى يوم، القاهرة 1955، ص 85.
[21] فتحية محمد: بلاغة النساء فى القرن العشرين، ص 87، 116.

مدرسة شبرا للبنات حيث حصلت منها ست فتيات على البكالوريا من القسم العلمى عام 1928.كذلك شهدت العشرينات والثلاثينات من هذا القرن إفتتاح عدد من المدراس الأخرى التى تهدف إلى تزويد الفتاة المصرية بقدر من الثقافة النسوية تعدها لتكون ربة بيت صالحة مثل مدراس الفنون الطرزية (عام 1925) ومدراس الثقافة النسوية (عام 1937)، ومدارس التربية النسوية (1938)، بالأضافة إلى المدراس المهنية كمدرسة المموضات والقابلات، ومدرسة التجارة، ومدرسة الزائرات الصحيات، ومدارس المعلمات ومعهد الخدمة الاجتماعية.[22]

وعرفت المرأةالمصرية طريقها إلى التعليم العالى منذ إنشاء الجامعة المصرية الأهلية (1908- 1925)، فقد أنشأت الجامعة قسما نسائيا تلقى فيه محاضرات حرة فى الفلسفة وعلم النفس والأخلاق والتربية للراغبات من النساء، وتولى إلقاء المحضارات عدد من رائدات الثقافية فى مصر، نذكر منهمن نبوية موسى التى حاضرت فى تاريخ مصر وتقدم العلوم الحديثة، ولبيبة هاشم – صاحبة مجلة "فتاة الشرق" – وتحدثت عن التربية والأخلاق، ورحمة صروف التى ألقت عددا من المحاضرت فى شئون التدبير المنزلى، ومللك حنفى ناصف التى حاضرت فى حقوق المرأة وواجباتها وموقف الإسلام من ذلك. وساهمت بعض الأجنبيات فى برامج الدراسة فى القسم النسائى بالجامعة المصرية، كما ألقى بعض الأطباء المصريين والأجانب على الدارسات محاضرات فى الصحة العامة ورعاية الأطفال، وكان من بين من إنتظمن فى القسم النسائى سيدات شهيرات كهدى شعروای وصفية زغلول (زوجة الزعيم سعد زغلول) وفاطمة نعمت راشد وغيرهن من بنات الأسر الثرية والمتوسطة.

ومن الغريب أن إنشاء القسم النسائى بالجامعة ووجه بمعارضة شديدة من جانب المحافظين، لأنهم رأوا فى خروج المرأة إلى الجامعة تجاوز للأدب وخروج على الخلق القويم ومساس بالعفة والشرف، وأرسلوا خطابات تهديد بالقتل إلى عبد العزيز فهمى بك سكرتير الجامعة إن لم يضع حدا لهذا البدعة، ويبدو أن المعاضة الرجعية كانت أقوى من أن تقاوم، فاضطر مجلس الجامعة المصرية إلى اتخاذ قرار بإغلاق القسم النسائى إعتبارا من العام الدراسى 1912 – 1913.[23]

وعندما تحولت الجامعة المصرية إلى جامعة حكومية عام 1925، وتولى إدراتها المفكر الكبير أحمد لطفى السيد رائد اللبرالية فى مصر تجددت آمال الفتاة المصرية فى ولوج باب التعليم الجامعى، وبالفعل تقدمت بعض الفتيات -اللاتى حصلن على البكالوريا عام 1928- بأوراقهن إلى الجامعة، فرأى أحمد لطفى السيد أنه اذا تقدم إلى الحكومة طالبا السماح بقبول الطالبات فى الجامعة، لفت أنظار جماعة الرجعيين وتكررت مأساة القسم النسائى بالجامعة الأهلية، فعمد إلى طريقة تنطوى على كثير من اللباقة ليتيسر قبولهن دون إثارة الانتباه إلى ذلك، فطلب من أمانة الجامعة ألا تشترط فى القبول إلا الحصول على البكالوريا دون تحديد لجنس الطالب، وبذلك قبلت الجامعة خمس فتيات فى ذلك الحين.[24] وكذلك فعلت جامعة الإسكندرية عند تأسيسها عام 1942.

وزاد عدد طالبات الجامعة بعد تخرج الدفعة الأولى منهن فبلغ 165 طالب عام 1935، وقدر عدد الحاصلات على شهادات عالية من مصر والخارج فى تعداد 1937 بـ 1979 خريجة وفى تعداد عام 1947 بلغ عددهن 4033 خريجة[25]، واستمرت أعداد الخريجات فى تزايد مطرد حتى أصبح لدى مصر عدد عظيم من الخريجات فى مختلف ميادين العلم. وكانت كلية الطب فى طليعة الكليات التى فتحت أبوابها أمام الطالبات، فالتحقت بها خمس فتيات عام 1928، وتبعتها كلية الآداب وكلية الحقوق عام 1929، ثم كلية التجارة عام 1936، والهندسة والزراعة عام 1945، والطب البيطرى عام 1947، ودار العلوم عام 1953، والازهر عام 1965.[26]

***

وكان حصاد نصف القرن من التعليم الذى أتيح للمرأة المصرية - بقدر محدود- بروز العديد من الشخصيات العلمية النسائية التى ساهمت فى النهضة العلمية والثقافية التى شهدتها مصر على مر النصف الأول من هذا القرن، ولعل إلقاء نظرة على الرائدات من بين تلك الشخصيات النسائية يعطينا فكرة عن عطاء المرأة المصرية فى المجالات العلمية والثقافية.

وتأتى السيدة مللك حنفى ناصف فى مقدمة من كان لهن فضل الريادة فى الحياة العلمية من نساء مصر فى نصف الأول من هذا القرن. وكانت من خريجات القسم العالى بالمدرسة السنية، وإشتغلت بالتدريس بمدارس البنات، ثم تفرغت للقراءة والكتابة ودارسة مناهج التعليم محاولة التوصل إلى مناهج دراسية تصلح أساسا لتعليم المرأة المصرية، وأقامت من بيتها منتدى تقصده السيدات المصريات والأوربيات، يتباحثن فيه فى المسائل العلمية والثقافية، وينظرن فى أحسن السبل للنهوض بالمرأة الشرقية.

---

[22] زينب محود محرز: تقرير عن تعليم القتاة فى الجمهورية العربية المتحدة، القاهرة 1968 المقدمة.
[23] عبد المنعم الجميعى: الجامعة المصرية القديمة، نشأتها ودورها فى المجتمع 1908 – 1925، القاهرة 1980، ص 46 – 48.
[24] درية شفيق: تطور النهضة النسائية، ص 86.
[25] اجلال خلفية: المرجع السابق، ص 125.
[26] نفس المرجع، ص 126.

وكانت ملك حنفى ناصف ترى أن يراعى فى تربية المرأة تأهيلها لأن تباشر من أعمال الرجل مالا ينافى الشرع الإسلامى، وكانت تخطب فى المحافل النسائية تدعو بنات جنسها إلى التخلص من الجمود والتخلى عن الأفكار البالية والأخذ بأسباب التقدم. وقدمت إلى المؤتمر المصرى (إبريل 1911) تقريرا ضمنته آرائها فى وسائل النهوض بالمرأة المصرية، وأكدت على مساواة المرأة للرجل فى الإد راك، وقدرتها على الإضطلاع بما يلقى عليها من أعباء كالرجل سواء بسواء لو أعدت الإعداد التربوى على نحو ما يعد الرجال.

وكانت مللك تجيد الإنجليزية والفرنسية إجادتها للعربية وتكتب وتحاضر بهما، وكانت تراسل عددا من الأديبات الأوربيات والأمريكيات المعاصرات لها. ونشرت مقالات أدبية وسياسية بصحف مصر أوائل هذا القرن، وخاصة فى "الجريدة" و"الشعب" ونشرت كتابان أحدهما بعنوان "النسائيات" جمعت فيه مقالاتها التى نشرت تباعا بالصحف، وثانيها بعنوان "حقوق النساء" قارنت فيه بين المرأة الشرقية والمرأة الغربية، وطالبت بأن تعطى للمرأة الشرقية حقوقها السياسية، وأن يعترف بحقها فى العمل. وكانت تفرض الشعر وهى فى الحادية عشرة من عمرها، واختارت لنفسها إسما مستعارا توقع به مقالاتها هو "باحثة البادية" تمثيا مع التقاليد التى كانت تعد إسم المرأة (عورة) لا يجب أن تكشف، ولكنها عالجت تحت هذا لإاسم المستعار أخطر القضايا الإجتماعية والفكرية ونازلت بقلمها أنصار الرجعية، وإن كانت قد أيدت بقاء الحجاب إلا أنها طالبت بإطلاق الطاقات العقلية للمرأة من عقالها، وتصحيح وضعها الإجتماعى[27].

أما لبيبة ناصيف، فقد عاصرت مللك وبرعت مثلها فى صناعة القلم وإجادة اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وأصدرت عام 1906 مجلة نسائية بعنوان "فتاة الشرق" وألقت المحاضرات بالقسم النسائى بالجامعة المصرية (1911 – 1912)، وكانت لها دراسات هامة فى الأخلاق والتربية، وظلت تصدر مجلتها حتى قضت نحبها.[28]

وإذا كنا بصدد الحديث عن الشخصيات العلمية النسائية فى أوائل هذا القرن، لا نستطيع أن نغفل ذكر السيدة نبوية موسى التى كانت رائدة تعليم البنات فى مصر، وشغلت العديد من المناصب التربوية، وحاضرت بالقسم النسائى بالجامعة المصرية، وتبنت منهجا تربويا معينا حاولت إقناع وزارة المعارف بتطبيقه، فلما عجزت عن ذلك آثرت الإستقالة ونزلت إلى ميدان الكفاح العلمى، فأنشات عددا من المدراس النوذجية الخاصة لتعليم البنات، ونجحت فى رسالتها نجاحاباهراً .[29]

ومع دخول المرأة المصرية إلى رحاب الجامعة، شهدت الثلاثينات من هذا القرن تخرج أول محامية مصرية (نعيمة الايوبى)، وأول طبيبة مصرية (كوكب ناصف) أصبحت مديرة لإحدى المستشفيات الكبرى بالقاهرة عن جدارة واستحقاق، ووصلت بعض الخريجات الأوائل إلى عضوية هيئة التدريس بالجامعة، وأصبح فى مصر أول المهندسات والصيدليات فى العالم العربى، بل كان من بين المصريات من أثبتن وجودهن فى دراسة الطاقة الذرية (سميرة موسى)، ناهيك عن الكاتبات اللاتى إشتهرن فى الأربعينات كأمينة السعيد وإنجى رشدى وعائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) وإيزيس فهمى ومرسيان اللوزى وغيرهن من الأديبات اللامعات.

***

واذا كانت المرأة المصرية قد استعادت – بخطى وثابة– مكانتها الإجتماعية بفضل إنكسار طوق الحريم الذى شل حركتها وتركها فريسة للجهل لما يزيد على أربعة قرون، وعادت إلى التعليم بعد إنقطاع طويل، فإنها أثبتت وجودها فى التعبير عن موقفها من قضية التحرر الوطنى، فلعبت المرأة المصرية المتعلمة دورا إيجابيا فى ثورة 1919، وأثبتت وجودها على صعيد العمل السياسى والإجتماعى بعد أن كانت قابعة فى عقردراها.

وفى عام 1923، أسست السيدة هدى شعروى "الاتحاد النسائى المصرى"، وطالبت بإلغاء الحجاب وإصلاح قانون الأحوال الشخصية الذى ينظم الزواج والطلاق وتحسين الوضع الإجتماعى للمرأة، وتحقيق المساواة بينها وبين الرجل فى شتى الميادين بما فيها الميادين السياسية والإقتصادية. وركز الإتحاد إهتمامه على التوسع فى تعليم البنات، وبدأت المطالبة بمنح المرأة الحقوق السياسية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، حين نظمت جمعية "بنت النيل" برئاسة درية شفيق المظاهرات لهذا الغرض فى مطلع الخمسينات.

وكان للمثقفات المصريات دورا رائدا فى الحركة النسائية العربية والشرقية، كما أقمن الصلات مع الحركة النسائية الدولية، فنظمن المؤتمرات فى مصر وخارجها لبسط المطالب العامة للحركة النسائية.[30]

***

وهكذا استعادات المرأة المصرية دورها الهام فى الحياة العلمية، وكشفت عن معدنها الأصيل الذى يستمد أصالته من التراث الحضارى المصرى، على مر العصور وتعاقب الدول، منذ بدأت مصر تخط الحروف الأولى فى تاريخ الحضارة

---

[27] نمر رضا كحالة: إعلام النساء فى عالمى العرب والاسلام، جـ5، ص 74.

[28] نفس المرجع، ص 33.

[29] درية شفيق: المرأة المصرية من الفراعنة الى اليوم، ص 92.

[30] للمزيد من التفاصيل حول الحركة النسائية فى مصر، إنظر: منيرة حسنى: أيام فى الهيئات النسائية، القاهرة د.ت.، أمانى فريد: المرأة المصرية والبرلمان، القاهرة 1947، أحمد طه: المرأة، كفاحها وعملها، القاهرة 1964.

الانسانية، حتى عادت لتنفس عنها غبار التخلف وتلحق بركب الأمم المتحضرة فى عصرنا الحديث، عصر النور والعلم، الذى حققت فيه التكنولوجيا تقدما سابق الزمن.

واذا كانت المرأة المصرية اليوم تساهم فى شتى ميادين العلم والثقافة بجهود بناءة فلاغرابة فى ذلك، لأن ما تفعله اليوم امتداد للأمس البعيد الذى حفظ فيه التاريخ أسماء مصريات عظيمات لعبن دورا هاما فى نشر العلم والمعرفة، وكانت لهن فى ميد انها صولات وجولات، ومساهمات لا تنكر خلدها التاريخ بحروف من نور.

المراجع

- إجلال خليفة الحركة النسائية الحديثة، قصة المرأة العربية على أرض مصر، القاهرة 1973.
- أحمد عزت الكريم، تاريخ التعليم فى عصر محمد على، القاهرة 1936.
- بترى فلندر، الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة، ترجمة حسن محمد جوهر وعبد المنعم عبد الحليم، القاهرة 1975.
- حسن ابراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة 1958.
- خطاب عطية على، التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى، القاهرة د. ت.
- درية شفيق، تطور النهضة النسائية فى مصر، القاهرة 1945.
  المرأة المصرية من الفراعنة إلى اليوم، القاهرة 1955.
- رفاعة الطهطاوى، المرشد الأمين للبنات والبنين.
- زينب محمود محرز، تقرير عن تعليم الفتاة فى الجمهورية العربية المتحدة، القاهرة 1968.
- شمس الدين السخاوى، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع.
- عبد الغنى محمود عبد العاطى، التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك، رسالة مجاستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة.
- عبد المنعم الجميعى، الجامعة المصرية القديمة، نشأتها ودورها فى المجتمع، القاهرة 1980.
- عمر رضا كحالة، أعلام النساء فى عالمى العرب والإسلام، الجزء الخامس.
- فتحية محمد، بلاغة النساء فى القرن العشرين، القاهرة د.ت.
- كلوت بك، لمحة عامة إلى مصر، الجزء الثانى.
- لوبيس عوض، تاريخ الفكر المصرى الحديث، الجزء الثانى، كتاب الهلال.
- ماهر حسن فهمى، قاسم أمين، سلسلة أعلام العرب.
- محمد عبد الرحيم غنيمة، تاريخ التعليم الجامعى فى الإسلام، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة.
- محمد عطية الأبراشى، مكانة المرأة فى الإسلام، القاهرة د.ت.
- وزارة الثقافة والإرشاد القومى، تاريخ الحضارة المصرية، جزآن.
- وليم نظير، المرأة فى تاريخ مصر القديم، القاهرة 1965.